الشعر في عصر النبوة

يرجع تاريخ نشأة الشعر إلى العصر الجاهلي، وتروى بعض أشعار لشعراء سبقوا الإسلام بنحو مائتي عام، وقد فقد أشعار كثيرة وما وصلنا من شعر الجاهلية أنضجه وأعلاه ولا يمثل مرحلة الإرهاصات الأولى في النشأة والنضج[1].

وللشعر مكان عظيم في حياة العرب، فقد اعتنت به عنايتها بأنسابها وأحسابها.

والشعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النِّفار، والحجة القاطعة عند الخصام[2]. فالشعر ديوان سجل الأحداث ومصدر للمؤرخ فقد قيَّد الوقائع والأخبار، وشهد على أحكامها.

وقد كلفت به العرب، وفضلته على سائر قولها، وقيل إنها كتبت عيونًا، تخيَّرتها فكتبتها وجعلتها على الكعبة، وهي المعلقات، ودليل عنايتها به أنها حفظت شعر الأولين، وروته وتوارثت الرواية في كثير منه حتى دون[3]، وقد تفاخرت القبائل بشعرائها، وقام لشعر سادتها، فزادهم فضلا وسؤدداً.

وكان للشعر خطره فيهم فرفع قومًا ووضع آخرين، فعرف للشاعر خطره ومنزلته فبلغ بشعره فيهم منزلة السادة وأصبح شعره سيفًا يسله على عدوه، ويضربه في مقتل.

ولا شك أن الإسلام أحدث زلزالاً مروعًا هز العالم، وقوض عروش الجاهلية وهناتها، وأدخل العرب التاريخ العالمي بعد أن كانوا بدوًا مجهولين في الصحراء لا يعبأ بهم أحد، وقد كانوا أشتاتًا قددًا متقاتلين وموتورين، فألف الإسلام بينهم، فأصبحوا بنعمة الله تعالى (الإسلام) إخوانًا، فنقلهم من البداوة إلى الحضارة ومكن لهم في الأرض، وأورثهم ملكها من آخرين.

وقد أحدث الإسلام تأثيرًا عظيمًا في الشخصية العربية، فشكل وجدانها ووعيها وأثرى فكرها، ووجه مقاصدها وأهدافها وغايتها في الحياة، وانعكس هذا الأثر على الأدب، فأصبح

---

(1) فنون القول عند العرب: الشعر، الخطابة، المثل، الحكمة، المنافرة (الحجاج)، الحكي (الأخبار) أو الحكاية.

(2) عيون الأخبار، ابن قتيبة – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة – ٢٠٠٣م جـ١٨٤/٢ والقول لابن قتيبة.

(3) العقد الفريد، ابن عبد ربه – الهيئة العامة لقصور الثقافة جـ٢٦٩/٥ والمعلقات سبع وعند بعضهم عشر، وأصحابها امرؤ القيس، وزهير ، وطرفة، وعنترة، وعمرو بن كلثوم، ولبيد، والحارث بن حلّزة، والأعشى، والنابغة الذبياني، وعبيد بن الأبرص.

له مضموناً جديدًا ولغة مهذبة رقيقة وخطاب محكم مؤثر له تقنيات فنية رائعة وأساليب مروعة سهلة التركيب وقريبة الفهم وعظيمة التأثير وسريعة الانتشار.

وقد أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في اللغة وفنون الأدب في المستوى الصوتي، والصرفي والتركيبي والمعجمي وقد قامت نهضة ثقافية واسعة ومصدرها الأساسي القرآن الكريم.

وقد تصديت للشعر في عصر النبوة لما تردد قديمًا وحديثًا عن الأزمة التي ألمت بالشعر في هذه الفترة فزعم بعض رجال الأدب أن الشعر ضعف فيها وأصابته هنات، وما كانت إلا ربكة أو انتقالة سريعة مر بها الشعراء الذين عاشوا في منطقة الصراع الأولى للدعوة (الحجاز) وشاركوا في أحداثها، ولا يحمل ما حدث لهم على بقية شعراء العرب، فقد انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وقامت حروب الردة (أو ثورة بعض القبائل على مركز الخلافة) ثم الفتوحات ثم الفتنة الكبرى ثم المذاهب السياسية وظهور الفرق، وكانت هذه الأحداث يدعمها الشعراء ويقفوا من ورائها وأصبحوا من رجالها، ولسانها في المحافل والمناظرات والحروب وكانوا دعاة لها.

بيد أن الشعراء الذين دخلوا في الإسلام في بدء الدعوة ودافعوا عنها انتقلوا بشعرهم من الجاهلية إلى الإسلام، وهو انتقال من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين في لحظة إسلامهم، وهذا التغير له خطره في الشعر، فقد تحول الشاعر إلى مضامين تهدم ما كان عليه في الجاهلية وتناقضها، ولها أثرها في الألفاظ والأغراض، والشاعر مدفوع إلى هذا بعاطفة جارفة وحماسة طاغية وله فيه همة ونشاط.

وليس ما قيل عن شعر عصر النبوة من شكوك وتضعيف بمقبول من كل جوانبه، ولا يحمل على كل ما نسب إلى هذه الفترة، فقد حمل عليها بعض المتأخرين شعرًا موضوعًا أو منحولاً لأغراض سياسية وقومية وصراعات عرقية ومذهبية، وقد ظهرت جماعة الرواة، ومنه من صنع شعرًا عليها طمعا في الشهرة والتكسب أو تعصبًا، وظهر القصاص الذين احترفوا الحكي، فأخذوا من العامة، ولم ينظروا في السند، وبعضهم كان يزيد فيما يحكيه، وبعضهم كان يؤلف شعرًا فيه فاختلطت هذه الأشعار بالصحيح فأوهنته، وبعض المتعصبين للقبيلة حرفوا شعرا منها أو زادوا عليه، وهذا لا يحمل على كل شعر عصر النبوة بل على قليل منه ونبه عليه العلماء فرصدوه ليميزوه عن الصحيح.

والشعر في عصر النبوة يراد به إنتاج شعراء المسلمين وغير المسلمين الذي عاصروا ظهور الإسلام واخترنا عصر النبوة وتركنا صدر الإسلام، تحديدا لفترة الدراسة، فعصر

صدر الإسلام عند الأدباء يبدأ من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية (١٣٢هـ)، فيلحمون الدولة الأموية في عهد الرسولﷺ وخلافة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وهما فترتان لهما شأنهما الخاص خلافًا للدولة الأموية التي غلب عليها الطابع السياسي، وكثير من الباحثين لا يقف طويلاً في بحثه عند عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، فيذكر فيهما ما قاله القدماء ثم ينتقل إلى الأدب في الدولة الأموية فيكثر فيها ويزيد، وكأنها هدف البحث، وما قبلها مدخل إليها، فأصبحت هذه الحقبة في عرف بعض الأدباء لا تمثل قيمة أدبية ولا تغني في تاريخ الأدب[1] بيد أن رجالاً أفذاذًا بحثوا أوجهًا وكشفوا أسراره وأماطوا عن قيمته الأدبية.

ولا يسمى شعر هذه الفترة بالشعر الإسلامي، لأنه ليس إسلاميًا في كل أمره، فيه شعر غير المسلمين وبعض الأشعار تجاوزت الإسلام في بعض المعاني والألفاظ والأغراض والأهداف والشعر الإسلامي ما قيل في شيء من الإسلام ويتخلق بخلقه.

وبعض الدارسين لا يقفون طويلاً عند عصر النبوة ولا يستفيضون فيه، لعدم وجود مصادر تقف عليه وحده، وكتب كافية، وقد دونت الدواوين في وقت متأخر وهي فترة قصيرة تدخل فيما بعدها من الأدب لكنها جليلة الأحداث غزيرة الإنتاج الأدبي، ومعظم شعراء هذه الفترة عاش بعض حياتهم في الجاهلية وبقيتها في الإسلام وعمّر بعضهم فأدرك الدولة الأموية وشاركوا في الأحداث، فجعلهم الأدباء مرحلة واحدة في الأدب، فأطلقوا على أدب عصر النبوة والراشدين وعصر الدولة الأموية أدب صدر الإسلام أو الأدب الإسلامي ويدخلون فيه عصر الدولة الأموية، وقد جذب أدب الدولة الأموية أعين الأدباء، لأنه حظي برعاية الدولة، وغزته التيارات السياسية والمذهبية فانصرفوا عن أدب عصر النبوة والراشدين إلى الثورة الأدبية التي قادها الشعراء والخطباء في عصر بني أمية. وقد أغراني ببحث هذه الفترة (عصر النبوة) ما وجدته من مادة أدبية غنية بعضها في كتب التفاسير وكتب الحديث وكتب السير والتاريخ والدواوين وكتب الأدب وبعض كتب اللغة.

وقد دعا أستاذي الراحل الدكتور إبراهيم عبد الرحمن في بحث له إلى ضرورة دراسة "أدب السيرة"، وعارض ما قيل عن ضعف الأدب (أو الشعر) في عصر النوبة والراشدين، وناقش هذا الموضوع ، وانتهى إلى خلاف هذا الرأي، ورأى أن هذه الفترة لم تحظ بدراسة

---

(1) ارجع إلى الشعر في صدر الإسلام – دار المعارف.

كافية.

لقد كان للشعر المنزلة الأولى في القول حتى نزل القرآن الكريم فعلا عليه وصار أعلى مراتب الكلام عند العرب، وقد حاول مشركوا العرب أن يعارضوه بقولهم فأخفقوا، وأيقنوا أنه ليس بقول بشر، وأنه من عند الله تعالى، ولكنهم جحدوا ذلك.

وقد جاء في بعض المصادر القديمة أن الشعر في عصر النبوة قد ضعف، وأن الشعراء قد هجروا الشعر، وعللوا ذلك بأسباب. وسلم بعض العلماء بذلك ورددوا هذا الرأي وشاع بين الأدباء وسلموا به، والسبب المباشر في قبول هذا الرأي ان هذه الحقبة لم تحظ، باهتمام رجال الأدب قديمًا وحديثًا لأنهم انشغلوا بأحداث الدعوة، وبما وراء هذه الحقبة من صراع قبلي وسياسي وفتن، أشعل نيرانها الشعراء وشاركوا فيها، واحتفى العلماء بشعراء الدولة الأموية وأدخلوا الحقبة الأولى فيها، وأطلقوا عليهما صدر الإسلام أو العصر الإسلامي، ولم يفصلوا بين عصر النبوة والخلفاء الراشدين وعصر الدولة الأموية.

ولا أرى ما رآه بعض الباحثين أن الشعر قد ضعف في صدر السلام، وأن بعض الشعراء توقفوا عن الشعر، لأن الإسلام لم يحثهم على قول الشعر.

والذي أراه أن الإسلام أحدث هِزة في جزيرة العرب، فتوقف الشعراء قليلاً، ليعيدوا صياغة شعرهم، وليستوعبوا الإسلام دراسة وفهماً، لينطلقوا منه، ويتمثلونه فى شعرهم ويُشربوه ألفاظه ومعانيه، ويصلحوا من أمره ويسموا بأهدافه، فبعض أغراض الشعر (المديح، الهجاء، الغزل) فيها مالا يرضى من القول مما حرمه الله تعالى، وكان عليهم أن يبحثوا عن مضامين جديدة يوافق نسق الإسلام.

وقد كان الشاعر يرهب الناس بشعره يعدوا على أعراضهم، فيتقون لسانه بالهبات والأموال، فينصرف عنهم وإلا هجاهم ووضع منهم وفضحهم بين العرب وعيرهم الناس بقوله حقًا أو كذبًا، وقد كان الحطيئة نموذجًا لهؤلاء الشعراء الذين كانوا يبتزون الناس وإلا هجاهم وأوجعهم.

وتروي كتب الأدب ما فعله عمر رضي الله عنه به عندما شكاه الناس، فمنعه من سب أعراض المسلمين، وقد كان الحطيئة متعصبًا وفيه من الجاهلية ما جعله في صفوف المرتدين على خلافة الصديق رضي الله عنه وساهم فيها بشعره.

وبعضهم يقول: إن الشعراء قد انصرفوا عن الشعر واكتفوا بالقرآن الكريم وأبوا أن يقولوا الشعر وقد أنعم الله عليهم بالقرآن الكريم، وهذا مذهب واحد من الشعراء

المخضرمين، وهو لبيد بن ربيعة العامري[1] وقد أسلم لبيد رضي الله عنه على ما قيل في عام الوفود قبيل وفاة النبيﷺ وكان من المعمرين، قيل عاش مائة وخمسًا وأربعين سنة منها تسعون في الجاهلية وبقيتها في الإسلام، وكان يشايع قريشًا في الجاهلية، وله فيها مجالس شعرية، وقد ضاق بتشاغل أهل مكة عن شعره بدعوة النبيﷺ، وحديثهم عنها وانصرافهم عن الشعر، ففسد مجلسه بمكة، ولكنه دخل في الإسلام بعد أن رجحت كفة الإسلام فوفد على النبيﷺ في وفد بني كلاب بعد وفاة أخيه أربد الذي رثاه وحزن لفراقه ووفاة عامر بن الطفيل مشركًا بعد أن لقي النبيﷺ وطلب أن يقاسمه الأمر، فأبى عليه وقتل في عودته إلى قومه، وكان لبيد قد عمر طويلاً فى الإسلام وسئم الحياة وطولها.

وكان لبيد كثير الشعر في الجاهلية مغرما بقوله وروايته عن غيره وكانت له دراية بأشعار العرب، ويستحين منها أشعارًا[2]. وله شعر دينى كثير دعا فيه إلى مكارم الأخلاق، وكان النبىﷺ يعجب ببعض شعره، وقيل عنه أنه توقف عن قول الشعر في الإسلام، ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحدًا، وهو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

وقد اكتفى بهذا البيت الذي حمد الله تعالى فيه على نعمة الإسلام، ولم يقل غيره في نحو خمس وخمسين سنة عاشها في الإسلام، وهذا الرأي يحتاج مراجعة، فللبيد أشعار قالها في الإسلام، وهي قليلة قياسًا لما قاله في جاهليته. وروي أن عمر رضي الله عنه طلب من المغيرة بن شعبة والي الكوفة في خلافته أن يستنشد الشعراء فيها ما قالوا في الإسلام ليحثهم عليه. وكان لبيد بن ربيعة قد أقام بالكوفة، فلما استنشد لبيدًا، قال: إن شئت ما عفى عنه في الجاهلية، فقال: لا أنشدني ما قلت في الإسلام، فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها، وقال: أبدلني الله هذا في الإسلام مكان الشعر، فأخبر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بذلك، فسُرَّ لذلك، وزاد عطاءه من بيت

---

(1) هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن بكر بن معاوية بن هوازن، وكان له أخ من أمه يسمى أربد قتله الله تعالى بالصاعقة. وقد أعطاه النبي ﷺ مع من أعطى يتألفه على الإسلام، وكان عمر رضي الله عنه يجله لحسن إسلام وورعه، فقد أبى أن يقول الشعر وآثر عليه أن يحفظ القرآن ويسمعه الناس – ارجع إلى السيرة جـ١٤٣/٤ والأغاني ٩٣/١٤ – ٩٦.

(2) وكان آخر ما قاله رثاءه أخيه لأمه أربد بن قيس، وقد أهلكته صاعقة بعد أن أبى أن يسلم وهو في قومه، وقد أهلك الله عامر بن الطفيل بقرحة في عقنه، وكانا قد اتفقا على قتل النبي ﷺ فقتلهما الله تعالى– السيرة جـ ٢٣٣/٤، ٢٣٤

المال[1].وهذه الرواية لا تحمل على أنه انقطع عن قول الشعر، بل تدل على ورعه وحسن إسلامه، فقد قال شعرًا في الإسلام وفي مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، وكان ينشد شعره الذي قاله في الجاهلية من سأله، وكان ينيب ابنته في الرد على من أرسل إليه شعرًا، أو أرسل له هدية، وكان يفحص الأشعار وينقدها ويستحسن منها الحسن.

وقد أقلَّ من الشعر وحده ولم يكن هذا موقف شعراء الإسلام جميعًا ولكن بعض النقاد حمله في حكمه على أنه موقف جماعي، فزعموا أن الشعراء انصرفوا عن الشعر إلى القرآن الكريم، والصواب أنهم وظفوا معاني القرآن في أشعارهم وتأثروا بأسلوبه فرقت أشعارهم وتهذبت ألفاظهم، وسمت معانيهم.

ولم تذكر المصادر القديمة أن لبيدًا ترك الشعر، ورجع عنه وأنكر ما قاله في الجاهلية، بل أفادت أن له شعرًا قليلاً في الإسلام، وكان ينشد شعر الجاهلية غير أنه جعل الدين هدفه، فترك ما كان يشغله عنه، فلم يقم للشعر في الإسلام قيامه له في الجاهلية، وقد أسن وخشي أن يأتيه أجله دون أن يكثر من عمله الصالح.

وقد أشاع المحدثون أن الشعر في عصر النبوة نزل عما كان عليه في الجاهلية، وبعضهم أسرف فزعم أنه توقف عن نهي أو تحريم أو ذم، وهو رأى بعض العلمانيين الذين ينفرون من كل من يتخذ الدين موضوعاً أو هدفاً له.

ولم يتوقف الشعر في عصر النبوة، ولكن تركت أشعار كثيرة قيلت في هجاء النبيﷺ وأصحابه والذم في دعوته، ، وقد تركها الرواة، لأن أصحابها كانوا مشركين وفيها كفر بالله ورسوله. وقد رجع أصحابها عنها فى الإسلام وتركوا روايتها لئلا تكون ردة عن الإسلام، وتورع الرواة عنها، وهم أهل دين. لما فيها من خروج عن الدين، وفحش وقذع فى أهله. وقد ذكر ابن سلام أن لأبي سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل، وقد كان له شعر في هجاء الرسولﷺ ومن معه، وقد أباح النبيﷺ دمه، ولكنه تاب وأسلم وأتاه معتذرًا، وقد ترك الرواة شعره لما فيه من كفر بالله ورسولهﷺ. وبعضهم ترك الشعر الذي قاله في جاهليته ولم يحدث به، ولم يروه أحد عنهم ورعًا واستحياء لما فيه، ولكن بعض الرواة ذكروا ما يتعلق ببعض الأحداث، وقد ذكرنا بعض الشعر الذي قيل في هذه الفترة لننفي بذلك مزاعم من قالوا ليس بها شعر أو أنه قليل، ونسلم بأن بعض أشعار المشركين في الإسلام وأهله قد سقطت ولم ترو؛لأنهم قد

(1) الأغاني ٩٤/١٤

صاروا مسلمين أو لما بها من الكفر.وبعضهم لا يتوارى من القول فيطعن في شعر حسان الإسلامي،ويوهنه ويزعم أنه لم يختلف كثيرًا في مدحه عما مدح به الجاهليين، ولأن حسان رضى الله عنه ترك بعض ما كان يقوله فى الجاهليين للعطاء، وقد خاض فى كل الموضوعات بيد أن شعره فى الإسلام كان فى مديح النبى والمسلمين، ورثاء الشهداء، وهجاء المشركين. وأقول لهؤلاء: ليس معقولاً أن يحول الشاعر شعره تارة واحدة مثلما تحول من الكفر إلى الإيمان، فالشعر صناعة لها أسسها، والتجديد فيها لا يكون فلتة (فجأة) بل يقع التغيير تترى على فترات في ظل تطور المجتمع وتغلل الإسلام فى وعيه وتمكنه منه، فقد تطور الشعر تطورًا حقيقيًا بدخول المجتمع العربي مرحلة الحضارة التي أثرت الشعر، وعمقت وحي الشعراء، وتعددت مشاربهم الثقافية، وتأثروا بحضارات الهند وفارس والروم واليونان، وانصهرت هذه الحضارات معًا، وتكونت شخصية جديدة،، فظهرت أغراض جديدة ومفردات مولدة ودخيلة، وتغير شكل القصيدة، وهذا التطور لم يقع تاماً لحسان رضي الله عنه ولا لغيره من شعراء عصر النبوة، وقد وقع التغيير في الأسلوب والمضمون، ولانت الألفاظ والطبائع، فتجافى الشعراء عن الغريب والتكلف وتطورت مفاهيم بعض المفردات الإسلامية التي وقعت في شعرهم، ولم يقع تغيير في شكل القصيدة أو أوزانها فمازالت القصيدة تحتفظ بالمقدمة التي تتوج بها، ويتخذها الشاعر مدخلاً لموضوعه.

وكانت المقدمة طللية (بكاء على أطلال وذكرياته) أو غزلية (يتغزل فيها بمحاسن الحبيب) ثم ينطلق إلى الموضوع، وقصائد كعب بن زهير ولبيد التي مدحا فيها الرسول ﷺ تتصدرها المقدمة، ولم يصدر النبيﷺ نهيًا عنها، ولكنهﷺ كان لا يقبل على الشاعر إلا بعد أن يستحسن معانيه، فيستزيده، وهو توجيه حكيم منهﷺ لأهل هذه الصنعة فأصلحوا من مقدماتهم، ولم يعودوا لمثلها في حضرة النبيﷺ، وكان حسان رضي الله عنه أسبقهم صحبة وأكثرهم دربة على المديح الذي يستحسنه النبيﷺ لطول صحبته به وعلمه بما يحب ويكره.

وما يسميه الباحثون ضعفًا ليس إلا مراجعة وإعادة تخطيط لهدف الشعر وأغراضه، فقد صاروا مسلمين فامتنعوا عما لا يرضى من القول. وقد هدم الإسلام آفات الجاهلية ورد كثيرا من أمرها، وقد كانت هذه الأمور موضوعات الشعراء، وطرح الإسلام موضوعات جديدة واستوقفت الشعراء وأغرتهم، فصارت هدفهم وظهرت الشخصية الإسلامية في الشعر العربي. وقد صار حسان رضي الله عنه – عندهم ضعيفًا، لأنه أوقف شعره على

مدح النبيﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، والرد على المشركين وهجائهم، وهجر مادون ذلك من أغراض الشعر، وماذا ينتظر من شاعر يقف في صفوف المجاهدين، ويشهد مصارع المشركين واستشهاد المؤمنين، وقد ندم عن جاهليته، ففي من يتغزل وليس بحين الغزل، ومن غير رسول اللهﷺ يمدح وأصحابه رضوان الله عليهم، وقد صار الملوك الذين مدحهم في جاهليته أمواتًا أو خصومًا لدينه.

فحسان رضي الله عنه ليس ضعيفًا في شعره الذي مدح به النبيﷺ وشعره الذي شارك به في المعارك، ولكن الضعف أتاه من قبل هجره بعض أغراض الشعر التي لم يجد لها مناسبة وليس لها وجه من القول في فترة الدعوة الأولى، والعمل الشاق الذي يكابده رسول اللهﷺ وأصحابه ومواجهة أعداء محيطين ومحدقين بهم، أيتركهم ويتغنى بمعاصيه، ويفضح الناس ويصف عوراتهم، ليرضى عنه النقاد، ويقولون فيه أجاد في وصف كذا من المرأة وعبر عن أثر الخمر تعبيرًا جيدًا في قوله كذا، وأحسن في نسيبه في كذا! وقد عف الرجل نفسه وحفظ لسانه ولم يقل كذباً ما لا يفعل، وجاهد مع النبيﷺ بشعره، وإن قال الشعر الذي يطلبه النقاد منه، فلمن يقوله والمسلمون لا يشترون لهوا الحديث، ولا يرضونه هدية ولا مضيعة للوقت أو شغل الفراغ، فهم في فراغهم ينصبون إلى عبادة ربهم، فقد أدرك واعياً ذوق الجمهور الجديد؛ لأن جمهور المسلمين المتلقين يخالف في ذوقه ما كان يستحسنه ويطرب له أهل الجاهلية. فترك حسان من الشعر ما يأباه الذوق الإسلامي في زمنه، وهو ما ضعّفه فيه نقادنا المعاصرون ولم يرضوه له.

وقد شغل الناس القرآن الكريم وأقبلوا عليه، وتباروا في حفظه وقراءته، وقد علا القرآن الكريم على ما سواه من كلام العرب شعرًا ونثرًا؛ وحسان كان يتأسى بلفظ القرآن ومعانيه، وهو رائد في هذا التأسي وليس مسبوقًا فيه، فأجاد في كثير منه وأخفق في بعضها، وهذا حال الروّاد ممن يفتحون الطريق ويضعون الأسس ليمهدوا المسير لغيرهم، فلا يعابوا على جهودهم،، وحسان كان رائدًا في استخدام الألفاظ الإسلامية في شعره وتناول مضامين جديدة، وجعل للشعر هدفًا عاليًا في الحياة، فقد حول هدف الشعر إلى أهداف سامية واقتدى به الشعراء فيها، وكان له رفاق في ذلك مثل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وكعب بن مالك، وكثير من أصحاب النبيﷺ قالوا الشعر، ولكن هؤلاء لم يقوموا للشعر قيام حسان له، ولم يتخذوه صنعة لهم فيعرفوا به. وقد قيل الشعر في الجاهلية طلباً لمغانم الدنيا، فقاله حسان وأصحابه رضوان الله عليهم ابتغاء مرضاة الله وحبًا لرسولهﷺ بعد إسلامهم.

وقد تعلق بعض المحدثين بأقوال بعض القدماء الذين قالوا إن الشعر ضعف أو توقف في عصر النبوة، وصاحب هذا الرأي الأصمعي الذي رأى أن الشعر يقوى بما يخوض فيه من شر، فإذا دخل في الخير ضعف، يريد بذلك أن الشعراء تحولوا عن بعض المعاني والأغراض المذمومة التي حرمها الله تعالى، ففقد الشعر بعض قوته، ويرى الأصمعي أن حسان بن ثابت رضي الله عنه من فحول شعراء الجاهلية بيد أنه ضعف بالإسلام وسقط شعره، وقطع متنه في الإسلام، يعلل ذلك بأن حسان هجر ما يخالف الدين من المعاني والأغراض وهو ما كان يرفع من شعره، وأوقف نفسه على مديح النبيﷺ وأصحابه والرد على المشركين، وترك مديح الملوك ومباريات الشعراء والغزل والفخر، وحمية الجاهلية وتفاخرها بالأنساب والحروب والظلم.

رأى ابن سلام[1] أن الشعر قد ضعف بمجيء الإسلام أيضاً وعلل ذلك بأن العرب تشاغلت عن الشعر عندما جاء الإسلام، فتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم، فانشغلوا عن الشعر وروايته ولهو عنه، فلما انتشر الإسلام، وفتحت البلاد واطمأن العرب وسكنوا المدن وعم الرخاء رجعوا إلى رواية الشعر بعد أن فقد كثير منه بموت رواته، وعدم تدوينه. وهذا ليس مبررًا، لأن حروب الجاهلية كانت كثيرة، وقد كانت هذه الحروب أرضًا خصبة يترعرع فيها الشعر ويزهوا، وكان للحروب دورها في علو الشعر في الإسلام.

ورأى ابن خلدون أن العرب انصرفوا عن الشعر أول الإسلام وانشغلوا بأمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، وتفوق القرآن الكريم والنبي ﷺ عليهم، فأخرسوا وسكتوا عن الشعر والنثر زماناً ثم ثابوا إليه بعد أن استقروا، والشعراء لم يتوقفوا، وسوف نذكر بعضاً ممن لهم صلة بالدعوة من شعراء المسلمين والمشركين، لنرد هذا القول الذي انتشر بين الباحثين. وهو وجه مقبول بيد أن الشعراء لم يتوقفوا بمجيء الإسلام، لأن شعراء المشركين نالوا من المسلمين ورد عليهم شعراء المسلمين، وقد أدرك الإسلام فحول الشعراء مثل: أعشى قيس، وهو ورجل مسن، وقد مات قبل أن يسلم، ولبيد بن ربيعة، وقد كان بشعره إلى جوار المشركين، ثم أسلم، واعتذر عن هجائه، وامتنع عن شعراء الهجاء والإباحية، لأنه قاتل إلى جوار المشركين بشعره، فتاب عن ذلك، ولم يخض فيه، لأنه رأى أن الشعر دفعه إلى الإثم، وآثر أن يتخذ القرآن الكريم له بديلاً، وقد كان هذا شأن أهل الورع الذين يتنسكون في الكبر ويهجرون ما شغلهم عن العبادة،

(1) طبقات فحول الشعراء، أبو عبيد الله القاسم بن سلام – السفر الأول ص٢٤،٢٥.

وقد كان هذا شأن لبيد وحده، وليس شأن جميع الشعراء الذين أسلموا رضي الله عنهم، فقد قال حسان الشعر حتى مات في خلافة معاوية رضي الله عنه، وقال كعب بن مالك وله رثاء في مقتل عثمان رضى الله عنه.

وأذهب إلى ما ذهب إليه ابن خلدون أن القرآن الكريم شغل الناس عن الشعر، وبهرهم بإعجازه، ففضلوه على سائر القول، ولكننا لا نطلق الرأي فيه، لأن هذا كان وقفًا على شعراء الحجاز فقط، الذين أدركهم الإسلام على الكبر، والشعر لم يسقط جميعه بل ما كان فيه هجاء للإسلام فقط أو فيه حديث عن الوثنية ولم يفقد شيئاً مما كان عليه إلا بعض مقوماته ودعائمه، مثل الهبات والجوائز، وابتزاز الناس، وحروب الجاهلية العصبية، وما كان فيه من فحش، وقد تورع عنه شعراء الصحابة رضوان الله عليهم وحدهم، دون غيرهم ممن دخلوا فى الإسلام فى الفتوحات.

وقد حرم الإسلام دعوى الجاهلية كأن يستغيث الرجل بعشيرته والتفاخر بالأنساب وأن يسب عرضًا أو يرمي محصنة أو يعرض بقوم، وقد كان شعراء الجاهلية لا يتورعون عن ذلك ويعدونه زادًا وسلاحًا يرفعونه في وجوه الناس، فيتألفونهم بالجوائز، ويكرمون وفادتهم ليأمنوا ألسنتهم.

وقد تعلق بعض الشعراء بأمور الجاهلية مرة ثانية، وهم مسلمون، فدعوا بدعوى الجاهلية في الفتنة، وخاضوا في الأعراض وجنح بعضهم في ظل الغنى والرخاء إلى الغزل العفيف والصريح، وعرف بعضهم بشعراء الخمريات والغلمان وغير ذلك من الشعر، وقد غزَّى هذه الفنون الظروف السياسية والدعم المادي وحياة الترف التي عاشتها الأمصار في ظل الحضارة التي أظلت بظلالها على ربوع الأمة.

ولا أميل إلى ما سلم به بعض العلماء إلى أن الشعر ضعف في عصر النبوة والخلفاء الراشدين أو أنه سقط، وهذا الرأي ليس للمحدثين بل سبق إليه الأصمعي، وابن سلام، وابن خلدون، ونسلم بما ذكروه عن ظروف الشعر في هذه الحقبة، وأهم ما فيها القرآن الكريم الذي أذهل العرب، واستوقفهم طويلا وأعجزهم عن محاكاته ومباراته ومخاصمته، فلم يجد المعارضون بدًا من الإعراض عنه واللغو فيه، والتشويش عليه لئلا يسمعه أحد، ثم أعلنوا عن عجزهم عن التصدى له ولأثره فيهم، فدخلوا فيه، ونهلوا منه. فالنص القرآني أبطل ما ادعاه الشعراء من قوة المخاصمة والحجاج واللجاج، فانصرف الناس عنهم، وانشغلوا بالقرآن الكريم فهو جد ليس بالهزل ويعلو ولا يعلى عليه، وهو كثير المعنى غزير الإيحاء، وله حلاوة لا يبلغها الشعر.

ولا شك أن الذوق العام في المدينة المنورة ومكة لا يرضى بما يتضمنه شعر الجاهلية من هجاء لاذع وقذع وقذف وتشبيب وإباحية، فقد تغير ذوق المتلقي ولا يقبل إلا حقًا وخيرًا، وليس شعر الجاهليين مقبولاً عندهم من جميع الوجوه، ولم يعد للشعر المكانة التي تبوأها في الجاهلية، فلم يكن فيها ما ينازعه مكانه، فأزاحه القرآن الكريم عن مكانته، وقدمه المسلمون عليه، بيد أنه لم يسقط من حياة الناس فقد بقى قائما ينشده المسلمون، ويرتجلونه في المواقف، ولكنهم لم يتخذوه مهنة وصنعة يحترفونها، وقد ظلت رواية الشعر في أقوام الشعراء، والشعراء أنفسهم كان بعضهم يروي شعر بعض والأبناء كانوا يروون شعر الآباء[1]، وكانت بعض القصائد مشهورة وكانت القريحة العربية تتسع لحفظ الشعر وروايته وقوله أيضاً، ولم تتوقف في جاهلية ولا إسلام، وقد غزاها الإسلام بمعان جديدة ومضامين سامية وآداب عالية.

وما قيل عن الشعر في الحجاز يراد به شعراء قريش ويثرب فقط ولا يحمل على شعراء القبائل العربية، فهم لم يسملوا بعد، وقد أسلم كثير منهم بعد فتح مكة، وكان فيهم شعراء وفدوا مع قومهم وسنذكر ذلك في موضعه، وكان هناك شعر قيل في حروب الردة وشعراء في حوادث الفتنة فكان الشعر يعبر عن أصوات القبائل، ويلعب دوره في المعارك ويعرض الحجج في الخصومات والحِجَاج. ويحمل ما جاء عن ابن سلام الأصمعي وابن خلدون على الشعر الموضوع فقد ادعت العصبيات شعرًا في الإسلام ونسبته إلى رجال منها لتجعل لنفسها شرفًا ودورًا وتصنع لنفسها تاريخًا، تباهي به العرب، وكان هذا الشعر ضعيفًا، وبعضه ليس شعرًا بل كلاماً معقوداً بقواف، وبعض القصاص صنعوا شعرا ونسبوه إلى شخوص قصصهم ليتكسبوا من قصصهم، وكانت هذه صنعة رجال في الجاهلية، وكان أشهرهم عبد الله بن الزبعرى الذي عارض كلام النبيﷺ بقصصه ليصرف الناس عنه، ويقول أنا أحدثكم بأفضل مما حدثكم به محمد، ويسرد عليهم قصصه الموضوعة، والمحرفة والخرافية، ومثله أمية بن أبى الصلت، كان يدعى أنه يعلم الغيب ويوحى إليه، ويحدث الناس عن الله تعالى ببعض ما يدعيه كذباً، وكان يرجو أن يكون نبياً، فلما أوحى إلى النبيﷺ حسده وكاد له. وكان القصاص يقصون على الناس في المساجد أحيانًا أو وفي النوادي وأسواق ومجالس الناس، وحلقهم، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعاقبون

---

(1) كان كعب بن زهير وأخوه بجير رضي الله عنهما يرويان شعر أبيهما زهير بن أبي سلمى، وكان الحطيئة يروي الشعر عن آل زهير، وروى الأعشى شعر خاله المتلمس بن علس – الأغاني ١٥/١٤٠

الوضّاعين منهم، وينهون الناس عنهم، وتصدى لهم علماء الأمة من بعد ولم يأخذ عنهم الرواة. وقيل عن بعض رواة الشعر المحترفين أنهم كانوا يصنعون الشعر وينسبونه إلى الشعراء، ويكثرون عنهم الرواية طمعًا في المال أو عصبية، أو شهرة.

وقد وجه ابن سلام نقدًا لاذعًا لمحمد بن إسحق رحمه الله؛ لأنه روى بعض الأشعار عن القصاص والرواة وهي موضوعة والوضع فيها ظاهر، وكان يعتذر عن ذلك بأنه ليس من صيارفة الشعر ولا رجاله فيعلم الصواب منه، بل كان يرويه في سيرته زيادة على ما قاله واستكمالاً لما حُدث به، وكان هذا ديدن علماء هذا العصر يذكرون كل الروايات للإنصاف والأمانة، ويلمحون إلى ذلك ويرشدون القارئ، وقد فعل الطبري (ت ٣١٠) ذلك في تاريخه، وفعله أيضًا محمد بن إسحاق، ولكن العامة لا تنتبه لمنهج الكاتب فتأخذ كل الروايات على الحقيقة وتستند إليه في حديثها.

وتدخلت عوامل عديدة فى منع بعض رواية بعض أشعار الجاهلية، أو ذكرها، فكانت هنالك موانع دينية وسياسية، فقد كان للدين أثر في ترك بعض شعر المشركين، فقد تورع بعض العلماء والرواة عن رواية الشعر الوثني، وشعر المجون، وشعر الهجاء الذي قاله المشركون في النبيﷺ، فابن هشام في سيرته يصرح في بعض المواضع التي روي فيها الشعر أنه ترك شعرًا لما فيه من كفر أو سباب أو سوء خلق، أو قذع في الإسلام والمسلمين، أو يصيب النبوة، فلا يرويه تورعًا وحياء، وفعل كثير من الإخباريين (المؤرخين) ذلك، وفعل مثلهم الأدباء، وسكتوا كذلك عن الأشعار التي تثير العصبية القبيلة.

وقد ترك الشعراء المسلمون المخضرمون أشعارهم التي قالوها في ذم الإسلام والمسلمين بعد إسلامهم، وسكتوا عنها، وذلك في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، والذين قد نهوا عن إنشادها بعد أن هداهم الله إلى الإسلام، بأمر من ولاة الأمر.

روى أن ضرار بن الخطاب وابن الزبعري؛ قدما المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه ونزلا على أبي أحمد بن جحش الأسدي ، وكان له مجلس يجتمع عنده الناس ، وينشدون الشعر، فقالا أتيناك لترسل إلى حسان بن ثابت فنناشده ونذاكره، فإنه كان يقول الشعر في الإسلام ويقول في الكفر (قبل أن يسلم). فحضر حسان وقدَّمهما فأنشداه شعرًا مما قالاه في جاهليتهم، فغضب حتى إذا صار كالمرجل يفور، فتركاه متغيظًا، وهما بالرحيل إلى مكة، فشكاهما حسان إلى عمر رضي الله عنه، فأرسل في إثرهما فرُدّا. وقال عمر لحسان: أنشدهما يريد شعره الذي قاله فيهم قبل أن يسلموا قبل فتح مكة، فأنشد حاجته حتى رضي وهدأ، فترك عمر رضي الله عنه الرجلين، ونهى عن ذكر شعر هجاء الجاهلية مما يغضب

الناس[1]، ويثير حمية الجاهلية.

ولا شك أن حملة التشكيك التي قادها بعض رجال الأدب في العصر الحديث، وقائدهم فيها الدكتور طه حسين أتت ثمارها في بعض جوانب دراسة الأدب، وأضرت به فى مواضع ،فقد كشفت النقاب عن بعض الأشعار التي وضعت في الإسلام على لسان الجاهليين والإسلاميين المتقدمين تعصبًا لنسب أو لمذهب سياسي أو طلبا للتكسب.ولكن هذه الحملة جنحت في بعض المواقع فأتت على الصحيح من الشعر، فصوبت إليه أسهم الشك وحملته على غيره مما فيه تزييف. فقد أقام بعضهم معركته على أسس ظنية، منها المقارنة بين ما جاء في القصيدة وطبيعة الشاعر، فلا يقبلون شعرًا دينيا عن ماجن يتحدث فيه عن الأخلاق والتقوى، وكثير من الشعراء قالوا شعرًا في المجون ولهم أشعار حميدة في مواطن حميدة أثرت فيهم، فقد كان الشاعر يمدح الصالحين بما فيهم، فإذا جالس غيرهم ماجنهم وعابثهم في اللهو والمزاح. ويتبين لنا أن ما قاله بعض متقدمي عصرنا الحديث يحتاج مراجعة في كثير من الوجوه، فلا يحمل كله على الصحة، فقد حملهم على تلك الآراء تأثرهم بالمناهج الغربية وتعسفهم في العمل بها في مواطن لا تكون فيها، وأعملوها دون قيد أو مراجعة، فأصابت جهودهم في موقع وأخفقت في أخر.

وقد آثارت هذه المناهج زوبعة كبيرة ضللت كثيرين في بدء النهضة الحديثة في مصر في القرن الماضي، فما لبثت أن هدأت ثورتها وخمد بركانها بعد فترة عندما بدأ الوعي الثقافي العربي يعيد نفسه ويستجمع قوته ليواجه بها الثقافات الوافدة، فذهبت حرارة الحماسة للغرب التي انتشى منها رجال من العرب، فحملوا على تراثهم، وأسخنوه طعنًا.

وبعض أفراد البعثات العلمية المتقدمة سطوا على مؤلفات بعض المستشرقين في التراث العربي ، وسلبوا أفكارها وصاغوها بأسلوبهم وادعوها لأنفسهم ظنًا منهم أن لا يعلم بهم، وقد مر ذلك على بعض الناس، ولكن هذه السرقات كشفتها بعثات أخرى ترجمت أعمال المستشرقين إلى العربية، فإذا فيها الذي نسبه متقدمون علينا لأنفسهم، وزعموا أنه ثورة على التخلف وتجديد في الوعي الثقافي وتنقيح للأدب وتخليته مما فيه من زيف وضعيف موضوع . وقد توارى تلاميذ هؤلاء أن يقولوا على أعمدتهم لصوص ، فقالوا: اقتباس وتأثر وتناص، ووراء هذه الكلمات معاني أخرى يعرفها المتخصصون!

---

(1) ارجع إلى طبقات فحول الشعراء جـ١/٢٤٤

وقد فضح سرقات بعض رجال البعثات أنهم نقلوا عن الغربيين بعض اعتقاداتهم غير الواضحة عن الإسلام فيشوبها لبس أو تضليل، فنقلت عنهم دون مراجعة، وحملت في أعمالهم على أنها آراء خاصة ومواقف فكرية، ورفعت أسهمهم بين المتأوربين، وسقطوا كذلك في بعض المغالطات التاريخية العقدية، فالغربيون كتبوا تاريخ أنبيائهم و تاريخ الشرق متأثرين بما جاء في العهد القديم، وقد خالف بعض ما جاء ذكره في القرآن الكريم، ووقع ذلك في الحديث عن علاقة إبراهيم وإسحاق وإسماعيل عليهم السلام ببيت المقدس ومكة المكرمة (بيت الله الحرام) .

وأخطأوا في مفاهيم بعض الأمور، فخلطوا بين الحكم في الإسلام ومفهوم الخلافة فيه وبين الحكم الكنسي، وهي الرؤية الغربية للحكم الديني مطلقا. وقد انعكس ذلك على تفسير بعض الألفاظ والتراكيب، نحو: سلطان الله، وخلافة الله في الأرض، وهو من عرف العربية أن تضيف ما له قيمة إلى ما هو أعز منه قيمة وقوة لتزيده قوة في موضعه، وتشريفًا، ومن ذلك "كتاب الله" يراد به القرآن الكريم وأضيف "الله" لفظ الجلالة له تعظيمًا وتشريفا وتمكينًا له في المعنى و نحو قولنا في عيسى عليه السلام "كلمة الله" تشريفًا له وتعظيمًا، وتعريفا لهذه الكلمة وتبيين مدلولها وأثرها في الفعل، فهي كلمة نافذة واقعة "كن فيكون".

بيد أن بعض المحدثين فسروا سلطان الله، وخلافة الله وغيرهما من الإضافات على أنها تقع حقيقة لا مجازًا، وزعموا أنها ادعاء التقديس وحق الألوهية على الخلق، وهو مفهوم كنسي لرجل الدين صاحب الوكالة عن الذات المقدسة. وهو من سوء الفهم والتأثير أوقعهم فيهما الجهل بسياق اللغة العربية وعرفها في التعبير عن المعاني حقيقة ومجازًا.

ومازال اختلاف الحضارتين الإسلامية والغربية في الجوهر سبب مباشر في الجدل القائم حول تفسير قضايا الإسلام في الفكر المعاصر، وقد أفدنا من النظرية الغربية في تفسير الأدب واللغة، بيد أن المتعصبين للغرب يعالجون الأدب العربي قاطبة في ضوء النظريات الغربية ويحمّلونه ما ليس فيه، فيأولون أشعار الجاهلية في نسق الفلسفة الغربية، ويكثروا القول، وليس الشعر منها في شيء إنما هو تفيهق ولجاج، وهم ألد الخصام.

** ** ** **